سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (14)

ديوان إدريس الجعيدي

أبو العلاء إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي

(1239-1308 هـ/1823-1890 م)

بسم الله الرحمن الرحيم

لبيك يا منقذي من لجة العدم ... سعيا على الجفن لا مشيا على القدم

فذا أوان سعود كنت أرصده ... وذي مناي كما في سابق القدم

فهو المرام وكل العز يعقبه ... ولا يخال بأني أحقر الخدم

قصدت أعتاب ملك شامخ بهج ... يقري الضيوف ويغني صاحب العدم

أنزلت رحلي بها وعندها أملي ... وهل يخيب نزيل الجود والكرم

شمرت عن ساعدي والأذن واعية ... فهاب أهل الحسام سطوة القلم

أرضى بذاك الذي أضاء مغربنا ... بعدله فغدا يميس في نعم

أزكى الأئمة شيمة وأرفعهم ... قدرا وأسبقهم لكل مغتنم

أميرنا الحسن المحمود سيرته ... تروع صولته الأسود في الأجم

نجل السلاطين قد أحيا مآثرهم ... ونال ما عجزت عنه ذوو الهمم

قد شاد للدولة الغراء مفخرها ... فساد عند ملوك العرب والعجم

تاج الملوك وفخرهم وسيدهم ... وخير من قد مضى في غابر الأمم

قد لاحظته السعود وهي في شرف ... وكل نحس عداه وهو عنه عم

النصر سابقه والسعد قائده ... والفتح يخدمه من جملة الخدم

والجود سيرته والحلم حليته ... والمجد عادته فاحذر من الندم

ليث إذا ما أحس الحي سطوته ... ألقوا سلاحهم مخافة النقم

غيث إِذا الأَرْض يَوْمًا مَسهَا عَطش ... غوث توسل بِهِ لباريء النسم

مدير عَالم مفكر فطن ... ومفحم باهر بأفصح الْكَلم

كل الفهوم لَهُ أَلْقَت أزمتها ... ونوره يهْتَدي بِهِ لَدَى الظُّلم

بهَا يُقَاوم من بغى ويدمغه ... بهَا يدافع أهل الريب والتهم

كم دبر الرّوم من كرّ وَمن حيل ... توجو النجاح بهَا والنجح فِي عقم

يرى بنور حجاه كل عَاقِبَة ... وَعين تَدْبيره لِلْأَمْرِ لم تنم

فصل الْخطاب حباه الله مكرمَة ... وَحِكْمَة عظمت من أبدع الحكم

فاطلب رِضَاهُ وَدم على محبته ... مدا الدهور وجانب دَاعِي السأم

فَهُوَ المنى لِذَوي الحجا وبغيتهم ... وسيب يمناه مثل الزاخر العرم

يدني الْأُصُول إِلَى نيل الْوُصُول ويحيينا ... بنعمته كالأرض بالديم

مَا زَالَ يحيى بهَا بِلَاد مغربنا ... فاقرع بصدقك بَاب الْجُود تغتنم

واسلك سَبِيل الصَّفَا تنَلْ بِهِ شرفا ... وَاقْبَلْ نصيحة من حباك واستقم

يَا غَايَة الْقَصْد إِنِّي رَاغِب طرب ... مستمسك بجوار مِنْك لم يضم

مولَايَ يَا من مزاياه وأنعمه ... فِي النَّاس أشهر من نَار على علم

مولَايَ أَنْت الَّذِي تغني الضَّعِيف إِذا ... مَا الدَّهْر أفْضى بِهِ لقبضة الْهَرم

بشراك إِن الفرنج سَوف يُدْرِكهَا ... مِنْكُم صغَار بِهِ تداس بالقدم

فَأَنت ذُو مدد وهم ذَوُو نكد ... وَأَنت ذُو جذل وهم ذَوُو غمم

موَلَايَ جد برضاك لي وَخذ بيَدي ... واحرس جنابي بِهِ من سَائِر الْأَلَم

وَاجعَل ثِيَاب الرضى سترا عَليّ وَلَا ... يرى بِهِ حَبل عروتي بمنفصم

فها أَنا ذَاك عِنْد بَاب سيدنَا ... أَرْجُو قبولا ووصلا غير منصرم

أبقاك رَبك فِي عز ومكرمة ... بِاللَّه أَمرك نَافِذ على الْأُمَم

أدامك الله مَنْصُور اللِّوَاء على ... كل الأعادي وَلَا برحت فِي نعم

تبارك من حباك بكل فضل   وخصك بالمزايا وبالكمال

فسدت القوم كلهم جميعاً   ومأواك بينهم دروة المعالي

ولا غرو أن تسود الكل طراً   وليس الأمر من حيز المحال

فإن المولى يختص من يشاء   بإنعامه على مر الليالي

أباريس إن كانت على الأرض جنة   فأنت هي المأوى على رغم حاسد

فما تشتهيه النفس من كل رائق   كثير بها لكنه غير خالد

كؤوس الصفا دارت من بين الأحبة فهمت لها شوقاً لتفريج علتي

نهاني عنها الاثم متداعباً أخ لي نصيح صادق في الأخوة

وأوعدني أني إذا ما شربتها يوضح للقاضي النزيه ضلالتي

فقلت: وكيف الصبر وهي من وصفها يُسَلَّى بها قلب الكئيب بنظرة

فخدها جهاراً لا تراقب من الورى قضاة. ولا شيئاً فأنت في ذمتي

فأملِ الأواني منها فهي مباحة ولي أذن صماء عن ذي ملامة

عرج على روضنا الأنيق وعج به فأولوا العقول تحيرت من عجبه

وانظر حدائق بهجة ما أجّلها يسلو بها قلب الكئيب من كربه

واقطف ثماراً دانيات قطوفها فلك الهنا يا وارداً لحبه

فأنتم وفود على مدينة بلجيق أكرم بهم من وافدين لبابه

فلكم هنا كل المقاصد والمنا أهلاً بذى الوفد الزكي من غربه

بالله عرج على تلك الجنان ولا تحيد عنها فما عليك من حرج

فلج معاهدها واقصد حدائقها ذات ابتهاج بقرب نهرها الهائج

بالله قف بالرفاق واغتنم لذة فالنفس حقاً غدت بذاك تبتهج

وانظر إلى الفلك في الانهار سابحة تصيد ريم البيدا نضئ كالسرج

وانظر لأشجارها بالشاطئين غدت تهدي السلام بميل غصنها البهيج

يا لائمي حسداً جرب وإلا قمت حزناً فما أنت إلا من ذوي العرج

قد رفعت إليك يا علم الوقـت، ومفتي الأنام قاضي القضاة

قصتي، فاستمع وبالحق فاحكم وارحم ضعفي، وفيض ذي العبرات

فاسني من رفيقي ظلم وجور لكن كان مقصوده مسرّاتي

كلفوني دخول دار (الطياطرو) أوقفوني مواقف الشبهات

فامتنعت، وقلت ذاك حرام فاتقوا الله عالم الخفيات

ثم جاءوا وقد تمالأوا طرا على ظلمي بباطل الدعوات

زعموا أنه يسرني – جوراً – مثل ما سرهم من رقص البنات

أوعدوني برفع ذلك للقاضي ليرى ذاك ساقطاً شهاداتي

ليس للقوم حجة ولا رسم لا برهان لهم، ولا بينات

لست أبغي وكيلاً عن هذه الدعوى إذ شأنه الحيل للفليسات

وحلفت يميناً عن صدق قولي واستوفاها مني أخو الترهات

فاستمع نصها وعلمه للعدل اسم زكي، لردع كل البغاة

فبحق سهام تلك الجفون وقسيّ كرمي الرماة

وبهز القدود عند التثني وبحق احمرار تلك الوجنات

وبلثم الوقوح تلك الشفاه فازمن زعمه بتلك اللذات

بالصدور، وما بها من رمان بانكشاف النزوات لا العورات

ما نظرت إلا بناظر عيني لا بقلبي لا بضوء المرآة

لا تقل أن الحكم يجري على الظاهر، دون التفات للخفيات

فقد بان صدقي، وعندي فتاوي إن ذاك من معفو العثرات

وافتح باباً إلى التأويل. . . وإلا فلنا رب يغفر السيئات

فما الصيد في وقت الربيع ولا الصيف من دأبي ولا أبغي التقلد بالسيف

ولكن أحب الصيد في غسق الدجا ببيت غزال ناعم الكف والردف

تعاطيني كأس الشوق صاف شرابه وتمزجه عتباً وتسمح بالعطف

وقبل انصداع الفجر يحلو تهجّدي وما أنا ممن يعبد الله عن حرف

ولي قلم يبري إذا هاج غيظه يراعي ذمام السيف من شدة الخوف

ففيه اكتسابي وافتخاري ورفعتي ونعم الرفيق في الشتاء وفي الصيف

تيقن بأن الله يعطي ويمنع ويخفض أحياناً وتارة يرفع

له الفضل والإحسان في كل حالة فسلم ففي التسليم فضل موسع

وكن واثقاً بالله في نيل رزقه وخل سبيل الحرص إذ ليس ينفع

ولا تترك الأسباب منك توكلا وباشر ولكن بالتي هيّ أرفع

وإن ضاق عنك الرزق يوماً في بلدة فدعها لعل الرزق عنك تخبع

وسارع إلى أخرى فلست مجدا وخيرها مصر طالبت فيه الخزارع

تحل بوصف الصدق في كل موطن نصحتك فاقبل مني إن كنت تسمع

وإن فتحت أبواب الرزق تكرما عليك فكن للشكر دائماً تفزع

يا فريد الإحسان صدقا وودا وحفيظ العهود قربا وبعدا

قد أتاني منك ألف سلام وشذاه يفوح مسكا وندا

فعليك السلام في كل حين وثناء عليك شكرا وحمدا

لكن في ذلك السلام عتاب فاق لطفا وراق قدحا وجدا

أنت مولاي عبد القادر غنا م الأمين الشهير صدقا ووجدا

فبما عندنا من أياد ووداد وفضل لايحصى عدا

قد ملكت قلبي يا قرة العي ن فصرت إذاك رقا وعبدا

كيف أنساك والفؤاد شهيد منك سله يفدك شوقا ووجدا

ما سهوت وتغافلت إلا رد بي الخوف من العتاب ردا

أو تظن فالظن بعضه إثم حسن الظن فهو أجمل رقدا

فلولا الفضل منك ما كنت عني سائلا وقصدت به قصدا

وإلا فما قيمتي وما قدري مع ضعفي حتى تجاوزت حدا

غير أنك ذو أياد فحليتني من أنفس التحية عقدا

فتجاوز وسامح بالفعل عني لاتراني مغيرا لك عهدا

قد أرخته قائلا في الدعاء دم يا قرة العين صادقا جدا

دعوني إلا من هويت أسير ولو أني في قيد الذنوب أسير

وخلو أسيري إن شوقي زائد ومن شدة الأشواق كدت أطير

ولاسيما والحب أعلى معلما بشوق إلى ذي النظم وهو حفير

وجاد بمجد لست اهلا لنيله ولكنه بالصدق مني خبير

فلبيك يا مولاي إن عزيمتي تبشرني صدقا بأني أزور

رجال أبي الجعد إليكم تشوقي وللقطب بن داوود قلبي شكور

وفي تلكم الأعتاب يحلو تطارحي ويشفى سقام ضاق منه صدور

ويجمع شملي بالخليل وسيدي مولاي العربي والشأن منه كبير

فيا أيها الحبر العلي جنابه لكم مدد يتلى وفضل شهير

ويا من حوى جل المحامد والثنا ومن لعلاه الخلق طرا يشير

حباكم إلاه العرش كل فضيلة لكم عزة من أجلها وظهور

وأسراركم معهودة وجلية لنا من ذكراها غبطة وسرور

فعطفا على عبد كسير جنابه وجد بعلاج القلب فهو نفور

وسلني بالقطب الشهير أبيكم صلاحا وسترا فالنوال كثير

قد وصلت إلى ديار التهاني وارتقيت الى مقام التداني

فأبشري بالمنى يا نفس فإني صرت من خدم الأديب بن داني

هذه منيتي تزوره شوقا كل ما يشتهي بها متداني

فهي قائمة مقام أنيس وهي غانية عن صوت الأغاني

كم شربت من ثغرها كأس رائع وسلوت بها عن نقر المثاني

المصادر:

رحلة ادريس الجعيدي طبع

الاستقصا للناصري

الموسوعة الشعرية العربية: محمد بن راشد آل المكتوم

مصادر لم أقف عليها:

الروض لأحمد الصبيحي: مخطوط الخزانة العلمية الصبيحية بسلا.